المقاومة النسائية في المغرب من خلال الأشعار الشفوية



د/ قاسم الحادك
كلية الآداب والعلوم الانسانية الجديدة
- المملكة المغربية-

الملخّص:

تعتبر مقاومة المرأة المغربية للاستعمار الفرنسي من أبرز المواضيع المنسية التي ظلت مهمشة من طرف البحث التاريخي الأكاديمي ولم تنل بعد حظها من البحث والتنقيب بالقدر الكافي والمطلوب. وهذا الوضع يرجع أساسا إلى سلطة الوثيقة المكتوبة وسيطرة النزعة النصية. لذلك تسعى هذه الورقة إلى إبراز الدور الذي يمكن أن يقوم به الشعر الشفوي في إضاءة مناطق الظل وسد الفراغ الذي يعرفه البحث التاريخي المغربي في موضوع المقاومة النسائية، من خلال استقراء مجموعة من النصوص الشعرية الشفوية المحلية التي قيلت من طرف العديد من الشعراء والشاعرات الذين عايشوا هذه المرحلة وكان بعضهم طرفا فاعلا فيها، والتي تطرقت إلى مشاركة المرأة المقاومة المغربية في المعارك التي خاضتها حركات المقاومة المغربية ضد القوات الاستعمارية الفرنسية، وخاصة معركة بوكافر الشهيرة التي جرت أطوارها سنة 1933، والصمود البطولي الذي أبدته طيلة هذه المواجهة العسكرية غير المتكافئة.

إن توظيف الشعر الشفوي المقاوم في كتابة تاريخ المقاومة النسائية المغربية حسب هذه الورقة البحثية يتيح للمؤرخ توسيع حقل البحث والتفكير، ويمكنه من ولوج دوائر ومواقع لا تكشف عنها الوثيقة المكتوبة، وبالتالي استكمال وبناء رؤية متكاملة. فهذه المادة الشعرية الشفوية لا تمده أي المؤرخ فقط بالمعلومات والأخبار التاريخية المكملة والمعمقة لما تحتويه المصادر المعتادة والمألوفة في البحث التاريخي، ولكن تمكنه أيضا من تفادي النظرة المركزية لتاريخ المقاومة والتفسير البطولي لأحداثه ووقائعه، والانتقال في مواضيع البحث من التركيز على الفرد الزعيم والقائد الذي يحظى بالأولوية المطلقة ويحاط بهالة من القداسة، إلى الدور الذي قامت به باقي الفئات الاجتماعية الأخرى خاصة النساء المقاومات اللواتي نادرا ما تظهرن في الوثيقة المكتوبة.

وقد حاولت هذه الدراسة الإجابة على عدد من التساؤلات وتسليط مزيد من الأضواء على مساهمات المرأة المغربية المقاومة في هذا التاريخ المنسي، إنها أشعار شفوية حية لأطراف

فاعلة عكست على نحو من التلقائية والصدق ما عجزت عن رصده أدوات التأريخ الأكاديمي بكل ما أوتيت من دقة علمية ونضج ومنهج وتراكم استقرائي، تقدم وجهة نظر الجانب المحلي المغربي ورواياته لهذه الحرب الاستعمارية من جهة، وتوفر لنا رصيدا تاريخيا مهما يميط اللثام عن جوانب ظلت مهمشة من وقائع هذه الملحمة من جهة أخرى، فهي وثائق ذات قيمة مضافة كبيرة مليئة بالمعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية.

Abstract

Moroccan women resistance of the French colonization is considered one of the leading topics that remained marginalized by the history academic research. It has not yet attained its sufficient share of research and exploration. This situation is mainly due to the authority of the written document and text control tendency. Therefore, this paper attempts to highlight the role that could be played by oral poetry in lighting shadow areas and filling the void in history research in the theme of "the Moroccan resistance of women", through the extrapolation of a series of poetic oral local texts produced by many poets who lived through this stage. Some of them even participated in resistance, which touched upon the participation of Moroccan women resistance in battles fought by the resistance movements of Morocco against French colonial forces, especially the famous battle of "Bougafer" that took place in 1933, and the heroic steadfastness shown throughout this unequal military confrontation.

The employment of oral resistance poetry in writing the history of the Moroccan women›s resistance by this paper allows the historian to expand the field of research and thinking , and allows him/her to access the departments and sites not disclosed in written document , thereby completing the construction of an integrated vision .This poetic interpretation does not only provide him/her with the complementary and in-depth historical information and news as contained in the usual familiar sources in historical research , but it also avoids the central perception of the history of the resistance and the interpretation of heroic events and proceedings. Moreover, this paper doesn't look into research topics focusing on the individual leader and commander surrounded by an aura of holiness. It sheds light on the role played by the other social groups, especially women resistant who are rarely mentioned in the written document.

I have tried in this study to answer a number of questions and shed more light on the contributions of women Moroccan resistance in this forgotten history. It's oral live poetry of resistant poets which reflected automatically and honestly what monitored academic history tools were unable to show

in spite of their scientific accuracy and maturity. In addition, it offers the perspective of the domestic side of Moroccans and their stories about the colonial war on the one hand, and provides us with an important historical asset that reveals the remaining marginalized aspects from the facts of this saga on the other hand, these are documents of big value full of social, economic, political, military and cultural data

مقدمة

إن استقراء العديد من النصوص الشعرية الشفوية المحلية التي قيلت من طرف العديد من الشعراء والشاعرات الذين عايشوا المرحلة الاستعمارية في المغرب، وكان بعضهم طرفا فاعلا فيها، يبين بالملموس أن المرأة المغربية شاركت بفعالية في مختلف المعارك التي خاضتها حركات المقاومة المغربية ضد القوات الاستعمارية الفرنسية، وأبدت صمودا بطوليا طيلة هذه المواجهة العسكرية غير المتكافئة.

فهذه الأشعار الشفوية تعد مادة أولية خامة صادرة عن صدق ومعبرة بكل موضوعية وواقعية، تغنت بها الجماعات القبلية، وعبرت فيها عن معاناتها المريرة مع المستعمر الفرنسي إبان فترة الاحتلال، ومن خلالها سنحاول الإجابة على عدد من التساؤلات وتسليط مزيد من الأضواء على مساهمات المرأة المغربية المقاومة في هذا التاريخ المنسي، إنها أشعار شفوية تقدم وجهة نظر الجانب المحلي المغربي ورواياته لهذه الحرب الاستعمارية من جهة، وتوفر لنا رصيدا تاريخيا مهما يميط اللثام عن جوانب ظلت مهمشة من وقائع هذه الملحمة من جهة أخرى، فهي وثائق ذات قيمة مضافة كبيرة مليئة بالمعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، والمعلومات عن المعارك التي خاضها رجال المقاومة وعن الظروف التي جرت فيها، وهي معطيات يندر أن نجدها في المصادر المكتوبة.

1 – شعر المقاومة الشفوي خصائصه ووظيفته:

يعد شعر المقاومة الشفوي شكلا من أشكال التأريخ اليومي لمعيش الجماعات القبلية المقاومة[1]، إنه مصدرا لا غنى عنه بالنسبة للمؤرخ والباحث، يعطينا صورة حية وواضحة لمجريات النضال الذي خاضته النساء المقاومات إلى جانب الرجال، من خلال الكلام الشفوي والكلمة المنطوقة المحفوظة في الذاكرة والمنقولة مشافهة. أي تلك الأشعار الشفوية المحلية التي تغنى بها شعراء وشاعرات مقاومون وعبروا من خلالها عن معاناتهم المريرة مع قوات الاحتلال. إنها شهادات وروايات حية لأطراف فاعلة عكست على نحو من التلقائية والصدق ما عجزت عن رصده أدوات التأريخ الأكاديمي بكل ما أوتيت من دقة علمية ونضج ومنهج وتراكم استقرائي[2].

إن توظيف الشعر الشفوي المقاوم في كتابة تاريخ المقاومة المغربية يتيح للمؤرخ توسيع حقل البحث والتفكير، ويمكنه من ولوج دوائر ومواقع لا تكشف عنها الوثيقة المكتوبة، وبالتالي استكمال وبناء رؤية متكاملة. فهذه المادة الشعرية الشفوية لا تمده أي المؤرخ فقط

بالمعلومات والأخبار التاريخية المكملة والمعمقة لما تحتويه المصادر المعتادة والمألوفة في البحث التاريخي[3]، ولكن تمكنه أيضا من تفادي النظرة المركزية لتاريخ المقاومة والتفسير البطولي لأحداثه ووقائعه، والانتقال في مواضيع البحث من التركيز على الفرد الزعيم والقائد الذي يحظى بالأولوية المطلقة ويحاط بهالة من القداسة، إلى الدور الذي قام به منسيوا التاريخ من فلاحين ونساء وأقليات، ومختلف المؤسسات الاجتماعية من عشائر وقبائل وزوايا، وهي فئات اجتماعية نادرا ما تظهر في الوثيقة المكتوبة، لأن التاريخ فعل جمعي بطبيعته خصوصا في المجتمعات ذات البنيات التقليدية كحالة المغرب في الحقبة التي يتناولها موضوعنا.

يتعلق الأمر إذن بنصوص شعرية بسيطة ومؤثرة تناولت القضايا والمواضيع المرتبطة بالمقاومة النسائية تناولا مباشرا وشفافا، لذلك كانت أشعارا شفوية توظف معجما بسيطا بعيدا عن الصور البلاغية[4] وخاليا من التكلف والتصنع كما في لغة الشعر المكتوب[5]، وبذلك بقيت محفوظة في الذاكرة الجماعية الشعبية وترسخت فيها انطلاقا من الترديد الجماعي لها في المناسبات والأسواق والأعراس وأماكن العمل كأوقات الحرث والحصاد، وبالتالي نجحت في التسرب إلى لاوعي هذه الجماعات القبلية وترسخت في ذاكرتها المشتركة[6]، وظلت محتفظة على الدوام بدرجة مهمة من الانفعال رغم ما تعرضت له من عزوف ثقافي وغياب بحث أدبي أكاديمي من مختلف العلوم سواء الأدبية منها أو العلوم الإنسانية والاجتماعية. ورغم أن هذه النصوص الشعرية هي نصوص شفوية حفظتها أفواه الحفاظ وتناقلتها إلى الأجيال اللاحقة، فإنها خلدت النضال الجماعي لهذه الفئات من المجتمعات القبلية المغربية، وشكلت وعاء لها في تأرجحها بين نشوة الانتصارات والملاحم وخيبة الهزائم والانتكاسات. وكان لها إسهام واضح في تحقيق التضامن واستنهاض الهمم وحثها على الصمود في وجه القوات الاستعمارية. كما ساهمت في تمجيد رجال المقاومة والرفع بهم إلى أسمى المقامات، وفي الوقت نفسه التعبير عن الغضب من الخاضعين والمستسلمين لسلطات الحماية الفرنسية ولعن المتعاونين معها وتحقيرهم وإهانتهم وتحميلهم مسؤولية وصول القوات الاستعمارية إلى قراهم وجبالهم والتهديد بمعاقبتهم[7]. واهتم أيضا هؤلاء الشعراء والشاعرات بوصف أسلحة المستعمر وخططه العسكرية والسياسية وتصوير قادة وجنود الجيش الفرنسي المحتل في عجزهم وضعفهم. وبذلك يمكننا اعتبار هؤلاء الشعراء والشاعرات لسان حال المجتمع المغربي شاركوا في توثيق مختلف الأحداث والوقائع، وتأريخها من خلال قصائد شعرية شفوية مؤثرة انتقلت شفهيا من جيل إلى جيل، فكان وصفهم دقيقا وجميلا يمزج بين الظواهر المادية كالخيل والغبار والمدفعية والرصاص والجنود وبين الوصف الرمزي للنفسيات والمشاعر والذهنيات.

كما ساهمت هذه الأشعار الشفوية في نشر أخبار المعارك والمواجهات العسكرية وبالتالي اختراق الحراسة الشديدة والحصار الإعلامي الذي فرضه المستعمر لمنع انتشار أنباء الهزائم العسكرىة التي لحقت به والخسائر التي تكبدتها قواته.

يتضح إذن من خلال هذه الأدوار والوظائف التي كان يؤديها الشعر الشفوي أن الأمر يتعلق بشعر قضية[8] شبهه هنري باسي Basset Henri «بالصواعق التي تنبعث من أعماق المحاربين أثناء الإنشاد وهم ينقضون

على العدو»[9]، موضوعه الأساس الدفاع عن قيم الصمود والتحدي، والتحريض على القتال في سبيل الحرية والكرامة، كما أنه «شعر سياسي تنشد موضوعاته الحرية وتتوق إلى الاستقلال وتستخف بالمستعمر وتقاومه»[10].

2 المقاومة المغربية بين الوثائق المكتوبة والأشعار الشفوية:

رغم التراكم النسبي الذي حققته كتابة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الفرنسي في السنوات الأخيرة، فإن الغموض لا يزال يلف جوانب عديدة من هذه المرحلة المهمة من تاريخ المغرب المعاصر، كما أن العديد من القضايا والإشكالات ما تزال في حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة سواء تعلق الأمر باستكشاف مقاومات مغمورة لم تحظ بالاهتمام- بل تعرضت للحيف- بسبب تركيز البحث الأكاديمي على المقاومات المشهورة والمعروفة التي قتل بعضها بحثا ودراسة، أو بتجديد طبيعة المواضيع والقضايا المطروحة وطرح إشكالات جديدة.

وهذا الوضع ليس نقصا في مستوى الدراسات المقدمة، وإنما بسبب مشكلة متصلة بسلطة الوثيقة المكتوبة وسيطرة النزعة النصية والاعتماد على مصادر ومراجع معظمها من صنف الكتابات العسكرية التي ألفها الضباط والعسكريون الفرنسيون الذين عملوا بالمغرب. وعدم إيلاء أهمية بالغة للتاريخ الشفوي والدور الذي يمكن أن يقوم به في إضاءة مناطق الظل، وفي تقديم رواية معقولة لوقائع وأحداث المقاومة المغربية. وتعتبر مقاومة المرأة المغربية للاستعمار الفرنسي، من أبرز المواضيع المنسية التي ظلت مهمشة من طرف البحث الأكاديمي ولم تنل بعد حظها من البحث والتنقيب بالقدر الكافي والمطلوب.

وفي ظل ندرة أو غياب مصادر مغربية حول التدخل العسكري الفرنسي والمقاومة البطولية التي ووجه بها من طرف القبائل المغربية، تقدم وجهة نظر الجانب المغربي ورواياته للأحداث، تبقى الروايات الشفوية مصدرا لا غنى عنه بالنسبة للمهتم والباحث لكتابة تاريخ المقاومة المغربية من الداخل وتجاوز النقائص التي قد تتضمنها الوثائق والمصادر الفرنسية المكتوبة. يتعلق الأمر على الخصوص بالأشعار الشعبية الشفوية المحلية التي ما زالت متداولة ومتوارثة جيلا عن جيل، وأضحت تشكل جزءا من الذاكرة الشعبية في مختلف مناطق المغرب.

يعتبر هذا الشعر المتوارث شفويا إحدى كنوز المغرب، إذ ينفرد بميزات وخصائص متعددة، ففضلا عن شفاهيته وعدم تدوينه لا نعرف كثيرا من قائليه أو ناظميه، إذ لم يكن هناك شعراء تفرغوا لنظم الشعر بالمعنى المعروف في المجتمعات الأخرى. إنهم أناس ملتزمون اجتماعيا ضمن النسق الاجتماعي الموجود، عبروا عن معاناتهم وذويهم من الغزو العسكري الفرنسي من خلال هذا الشعر. ورغم شفاهيته تلك فإنه استطاع أن يستمر موجودا متوارثا عبر السنين، أي إنه شعر سماعي يرتبط أساسا بالأذن لكون الأغلبية الساحقة من جماهير المتلقين والمستهدفين كانت تتخذ السمع وسيلة للتثقيف في مرحلة انتشار هذا الشعر. إضافة إلى ذلك ارتبط هذا الشعر أيضا بالغناء مما سهل حفظه وبقاءه عالقا ومحفورا في الذاكرة.

ونظرا للأهمية البالغة التي اتسمت بها هذه النصوص الشفوية، فإنها قد حظيت بعناية خاصة من طرف المدرسة الكولونيالية الفرنسية،

حيث انبرى عدد غير قليل من الأجانب للبحث في هذا الأدب الشفوي جمعا وتدوينا ودراسة، وبذلوا جهودا كبيرة بفضل الوسائل والأدوات المادية والعلمية المتاحة لهم للخوض في غمار الثقافة الأمازيغية وآدابها[11] قصد النفاذ بشكل عميق إلى المجتمع المغربي وتوجيه تاريخه، أو صبغه بصبغات مقصودة مستغلة إياه في أغراض سياسية خاضعة للتوجه الأنتروبولوجي الذي يجعل الآخر المختلف وثقافته موضوعا للدراسة الغرائبية من منطلق البحث عن البنيات الأسطورية التي تتحكم في ثقافة هذه المجتمع المغربي. وقد كانت ثمرة هذا الجهد جمع عدد لا بأس به من النصوص الأدبية الشعرية والنثرية التي كانت مهددة بالضياع وتقديم معرفة كولونيالية تعكس قراءتهم وتأويلهم للإبداعات التي تلقوها[12].

أما على صعيد الأبحاث التاريخية المغربية فما يزال تدوين شعر المقاومة لم يسلك بعد مسارا صحيحا. وإذا استثنينا بعض الندوات التي تم تنظيمها ومجهود بعض الباحثين الجامعيين في جمع وتدوين هذا الموروث الثقافي وجعله في متناول الباحثين لاستثماره والانكباب عليه[13]، لا يزال شعر المقاومة يطاله فراغ منهجي كبير ويعاني من قلة إن لم نقل انعدام دراسات شاملة ومعمقة، بسبب سمة التردد والشك وعدم الثقة بالرواية الشفوية ومناهج التعامل معها والاستفادة منها، التي ما تزال تشوب موقف المؤرخين والباحثين الذين يعتقدون بأن الرواية الشفوية غير قادرة على تقديم أو بناء حقيقة تاريخية. غير أن قراءة متأنية لهذه الأشعار الشفوية ومقابلة المعلومات الواردة فيها بالأبحاث المدونة التي ألفت حول الغزو العسكري الفرنسي يفيد بأننا أمام رواية شفوية بالغة الأهمية، لذلك نعتقد اعتقادا راسخا أن العلوم التاريخية اليوم رغم ما أوتيت من آليات لا يمكنها التنصل من الرواية الشفوية كمصادر مهمة مكملة ومصححة للكتابة التاريخية. من هنا تبرز ضرورة الاهتمام بهذا التاريخ الشفوي من حيث الجمع والتدوين والدراسة والتحليل أي نقله من مستوى التداول الشفاهي إلى مستوى التوثيق والنشر، وهو ما يمكن اعتباره ضرورة علمية استعجالية، لأن الاهتمام بهذا الرافد وجمعه وتدوينه سيسهم بلا شك في تسجيل الأحداث بحسب واقعها الفعلي مما يكفل توثيقها والحفاظ عليها، وبالتالي العمل على إغناء وإثراء الدراسات التاريخية لكونها روايات فاعلين وصانعين للأحداث أو معاصرين لها. غير أن هذا العمل يحتاج إلى مجهود جماعي أو مؤسسة علمية ترعاه وتطوره وعدم الاقتصار على المحاولات الفردية.

لقد واكب الشعر الشفوي المقاوم كل هذه المراحل التي مر بها الغزو العسكري الفرنسي للقبائل المغربية، وصور لنا جوانب مهمة من هذه المواجهات العسكرية غير المتكافئة. وحسب هذه النصوص الشعرية الشفوية فقد عمد الفرنسيون في إطار عملياتهم العسكرية إلى توظيف وحدات عسكرية متنوعة تتكون من قوات نظامية وأخرى غير نظامية تشمل القوات الاستعمارية (مغاربة وتونسيون وجزائريون وسينغاليون). لكن وتماشيا مع السياسة التي نهجها قادة جيش الاحتلال والقاضية بتفادي ما أمكن الخسائر البشرية في صفوف قواتهم النظامية، فقد كانت هذه الأخيرة مسبوقة دائما بفرق من القوات غير النظامية من أبرزها فرق الكوم[14].

وقد كان هؤلاء المقاتلون المغاربة المجندون داخل جيش الاحتلال يزج بهم في الجبهات الأمامية وفي مقدمة الوحدات المتنقلة لاجتياح جماعات المقاومين، وتوكل إليهم

المهام الصعبة والعمليات الخطيرة، لأنهم تميزوا عن باقي القوات الاستعمارية بتفوقهم الجسدي والذهني. وقد كان لهذه الشجاعة التي اتصف بها هؤلاء المجندون المغاربة ثمنا باهضا تمثل في الخسائر الثقيلة التي تكبدتها هذه القوات[15].

كما تميز رجال حركات المقاومة المغربية حسب هذه النصوص الشعرية الشفوية بحركيتهم العالية وقدرتهم الكبيرة على الصبر والتحمل. ورغم توفرهم على أسلحة بسيطة مثل البنادق التقليدية، فقد استطاعوا تعويض النقص المادي الذي يعانونه بسبب ضعف التسلح وقلة الإمكانيات، عن طريق الاستغلال الذكي للبنية التضاريسية الصعبة لمناطقهم الجبلية، فعمدوا إلى إنشاء تحصينات في المنحدرات والملاجئ الطبيعية كالكهوف مكنتهم من تجنب نيران القوات الفرنسية. يضاف إلى ذلك تعلقهم الكبير بالحرية وحماستهم الدينية العالية وحركيتهم الهائلة. كما استفاد رجال المقاومة أيضا من ظلام الليل والظروف المناخية، وعمدوا في أحيان كثيرة لاستدراج العدو أو التسرب داخل صفوفه كي يجعلوا القتال وجها لوجه، وبالتالي فإن نهاية المواجهة غالبا ما تكون دموية تتكبد خلالها القوات الفرنسية خسائر بشرية ومادية كبيرة.

كما لجأت حركات المقاومة إلى تبني أساليب قتالية متنوعة مثل الكمائن والهجمات المضادة، التي كانت تتم من قبل مجموعات صغيرة تتكون من عشرات الأشخاص الذين يتخذون من الكهوف والصخور مخابئ لهم، ويعملون على مباغتة الفرق العسكرية الصغيرة والمعزولة والانقضاض عليها من خلال الشروع في إطلاق كثيف للنيران من مسافات قريبة محدثين فوضى عارمة وسط القوات الفرنسية، ثم يتم استغلال هذه الفوضى للقيام بهجوم متلاحم. وقد يتخذ هذا الكمين حجما كبيرا بشكل مناورة موحدة ومهيأة بشكل جيد. ويعتبر عامل المفاجأة أيضا سلاحا مهما استخدمه رجال المقاومة ووظفوه بشكل جيد مكنهم من تحقيق عدة انتصارات رغم قلة أعدادهم وضعف تسليحهم، كما كانوا يستغلون أي خطأ ترتكبه القوات الفرنسية سواء تعلق الأمر بغياب التنسيق بين مختلف الوحدات العسكرية أو انفصال وحدة عن باقي القوات، حيث لم يتركوا الفرصة تمر دون أن ينقضوا عليها بشراسة.

ويرجع نجاح هذه الأساليب القتالية لحركات المقاومة إلى خصائص أساسية امتاز بها رجال المقاومة، وتمثلت بالخصوص في سرعة مناوراتهم ونجاحهم في إحداث المفاجأة وحركيتهم العالية، واستغلالهم الذكي للمعطيات التضاريسية التي تمكنهم من الاختباء.

وانطلاقا من هذه القصائد الشعرية التي نظمتها شعراء مقاومون وشاعرات مقاومات يتضح بشكل واضح الوسائل العسكرية الهائلة التي وظفتها قوات الاحتلال الفرنسي في إخضاعها لحركات المقاومة المغربية، فقد اعتمدت المؤسسة العسكرية الفرنسية في عملياتها العسكرية في المنطقة على أسلحة حديثة وفتاكة متنوعة مثل الرشاشات والبنادق ذات الطلقات السريعة[16]، غير أن توظيف سلاح المدفعية سواء الخفيفة أو الثقيلة هو الذي ضمن لها التفوق في مواجهاتها مع جماعات المقاومين، من خلال لجوئها إلى القصف المدفعي المكثف لمواقع تواجد رجال المقاومة وتشتيت تجمعاتهم، وما أحدثه ذلك من رعب وفزع في نفوسهم، فرغم تفوقها العسكري الكبير لم تكن قوات الاحتلال تجرؤ على الدخول في معارك مفتوحة مع رجال المقاومة، وكانت تكتفي عوض ذلك بمواجهتهم

بقصف مدفعي وجوي مكثف[17]، وفي هذا الإطار يقول جورج بوردون. لذلك كان أول ما يطالب به رجال المقاومة عند خضوعهم هو وقف القصف المدفعي.

ومن جهة أخرى ساهم سلاح الطيران بدوره في ضمان تفوق قوات الاحتلال وحسم المواجهات العسكرية لصالحها حسب شاعرات المقاومة، سواء من خلال الضبط الدقيق لطبوغرافية المجال، عبر القيام بجولات استطلاعية لالتقاط صور مكنت من رسم خرائط مفصلة، أو من خلال القصف العنيف لأماكن تمركز جماعات المقاومة بهدف تدمير تنظيماتها الدفاعية والمشاركة الفعلية في العمليات عبر القيام بالتغطية الجوية للقوات البرية الزاحفة.

وقد شكل التوظيف المكثف لسلاحي المدفعية والطيران في العمليات العسكرية عاملا حاسما، استهدف القضاء على جميع مصادر العيش في إطار خطة سعت النيل من معنويات المقاومين وأسباب صمودهم والتعجيل بخضوعهم[18]، حيث أدت الكميات الهائلة من القنابل والمتفجرات إلى تراجع المقاومين واستسلامهم نتيجة الرعب الذي ألقته في نفوسهم، وساهمت بالتالي في تفكك كتلة المقاومة.

وأمام استماتة المقاومين وصمودهم وعجز النشاط السياسي والقوة العسكرية عن إخضاعهم، أشارت مقاطع عديدة من هذه القصائد الشعرية الشفوية إلى لجوء القيادة العسكرية إلى تبني أساليب الحصار الاقتصادي، حيث عمدت إلى السيطرة على المجال الحيوي للقبائل المقاومة كالأراضي الزراعية والرعوية، ونهب قطعانها ومصادرة ممتلكاتها والدفع بها إلى قمم الجبال لتقاسي البرد والجوع، والتخطيط للعمليات بتزامن مع موسم الحصاد لجعل هذه القبائل المقاومة أمام الأمر الواقع، إما الخضوع والحفاظ على محاصيلها الزراعية أو الاستمرار في المقاومة مع ما يترتب عن ذلك القرار من تبعات. وحتى إذا لم تضطر إلى الخضوع من شدة المعاناة فإنها تكون منهكة وتصبح مقاومتها صعبة إن لم نقل مستحيلة.

3 المرأة المقاومة من خلال الشعر الشفوي معركة بوكافر نموذجا:

على غرار مختلف وقائع وأحداث تاريخ المقاومة المغربية، لم تأخذ معركة بوكافر قسطها من البحث والتدقيق من طرف الباحثين المغاربة، وتبقى المصادر الفرنسية المنبع شبه الوحيد لاستسقاء المعلومات، وهي مصادر معظمها من صنف الكتابات العسكرية التي ألفها الضباط والعسكريون الفرنسيون الذين عملوا بالمغرب أمثال الجنرال هوري Huré والطبيب القبطان جان فيال Jean Vial وغيرهم. غير أن مقاربة موضوع يخص تاريخ المقاومة المغربية بالاعتماد على هذه المادة المصدرية التي أنتجتها المؤسسة العسكرية الفرنسية يطرح العديد من الإشكالات، فهذه الكتابات الأجنبية ونظرا للسياق الذي اكتنفها فإنها لا تخلو من مغالطات وتضليل، لذلك يجدر بالباحث اتخاذ الحيطة والحذر بتمحيص خطاباتها ومضامينها وإخضاعها للتفكيك والنقد بشكل موضوعي حتى لا ينساق مع طروحاتها ويستبعد إسقاطاتها ومسلماتها الاستعمارية، لإنها كتابات سعت إلى نزع كل قيمة عن المقاومة التي قامت بها القبائل المغربية، معتبرة إياها من أعمال اللصوصية وقطع الطرق والتمرد والعصيان، ووضعتها في إطار التعارض المزمن بين بلاد السيبة وبلاد المخزن.

يمثل جبل بوكافر حيث دارت وقائع ملحمة من أروع الملاحم التي سطرتها حركات المقاومة المغربية ضد الاحتلال الفرنسي، قلعة محصنة بشكل طبيعي تتوسط كتلة صاغرو الجبلية، ذات تضاريس شديدة الوعورة وارتفاعات تتجاوز 2700م.

ويعود تاريخ هذه الملحمة إلى شهر يناير من سنة 1933م عندما قرر القادة العسكريون الفرنسيون القضاء على جماعات المقاومة التابعة لقبائل آيت عطا المتحصنة بجبال صاغرو بزعامة عسو أوبسلام، والتي تقدر أعدادها بحوالي ألفي مقاتل إضافة إلى الشيوخ والنساء والأطفال، كخطوة أولى نحو إخضاع الأطلس الكبير. ولتحقيق هذا الهدف، استنفر قادة الاحتلال قوات عسكرية ضخمة وصلت حوالي 6400 رجل من المرتزقة وأحد عشر فيلقا من الكوم، وثلاثة فيالق من اللفيف الأجنبي وعدة وحدات من المدفعية والخيالة وستة أسراب من الطائرات[19].

وقد عاشت منطقة بوكافر التي يتحصن فيها المقاومون بقيادة الزعيم عسو أوبسلام، حصارا عسكريا و اقتصاديا خانقا من كل الجهات دام حوالي 42 يوما مرفوقا بقصف لسلاح المدفعية المتمركز في القمم المحيطة، وبغارات عنيفة لسلاح الطيران الذي استهدف الملاجئ والكهوف والمغارات، لكن هذه الخطط التي استهدفت وضع اليد على جميع موارد العيش لدى المقاومين بغية دفعهم للخضوع أو التسريع بوتيرة استسلامهم، ووجهت بصمود صلب من قبل جماعات المقاومة التي أصرت على مواصلة مقاومتها. لكن وبعد طول فترة الصمود الناتجة عن اشتداد الحصار العسكري والاقتصادي ولجوء القوات الفرنسية إلى تكثيف عمليات القصف الجوي والمدفعي، أدركت هذه الجماعات المقاومة المتحصنة في المرتفعات عجزها عن مواجهة القوات الفرنسية المدججة بكل أنواع الأسلحة وخاصة سلاحي المدفعية والطيران مما كان له دور كبير في النيل من معنوياتها وإرهابها والتأثير عليها نفسيا، حيث عمت حالة من اليأس رجال المقاومة، وهي ظروف جعلتهم يفكرون جديا في المكاسب التي يمكنهم ربحها في حالة خضوعهم.

وأمام استمرار الحصار والقصف المكثف والمتواصل ومسلسل التجويع والتقتيل الممنهج أصبحت مسألة الاستمرار في المقاومة والصمود تعني الانتحار الجماعي، خاصة في ظل الخسائر الفادحة التي تكبدتها جماعات المقاومين والتي تمثلت في مقتل أكثر من 2300 شخص من بينهم 500 مقاتل[20] وتدمير قطعان الماشية التي تعتبر رأسمالهم الوحيد[21]. مما جعلهم يدخلون في اتصالات مع الفرنسيين انتهت بإعلانهم الاستسلام يوم 24 مارس 1933 وفق شروط منصفة[22].

لم تبق المرأة المغربية بمعزل عن مجريات المواجهات التي عرفتها منطقة بوكافر، فقد شاركت في هذه المعارك البطولية إلى جانب الرجل ضد القوات الاستعمارية[23]. فكانت تسعف الجرحى وتضمد جروحهم وتحمل البعض منهم إلى المخابئ[24]، وقامت أيضا بخدمة المقاومين وحثهم وتشجيعهم على الصمود والاستبسال ورفع معنوياتهم عن طريق ترديد الزغاريد والأشعار الحماسية، وفي الوقت نفسه قامت أي النساء المقاومات بمطاردة رجال المقاومة المتراجعين والمنسحبين من المواجهات العسكرية مع قوات الاحتلال والسخرية منهم، كما عمدن إلى توبيخ وتحقير كل من تخلف منهم، حيث كن يحملن أواني من الحناء لرش المقاومين الفارين من المعارك فيضل لون الحناء وصمة عار لهم

ولأفراد أسرهم. والتهديد بإنزال أشد العقوبات بالخاضعين أو أولئك الذين دخلوا في هدنات مع الفرنسيين باعتبارها يتحملون مسؤولية كبرى في إنجاح الغزو الفرنسي.

ولم يقتصر دور النساء المقاومات على تقديم الخدمات لرجال المقاومة وتشجيعهم وتحريضهم على القتال، بل شاركن أيضا في القتال إلى جانب الرجال في هذه الحرب الاستعمارية وحملن البنادق دون أي إحساس بالدونية[25]. وقد أكدت الأشعار الشفوية التي جاءت على ألسنة مجموعة من الشعراء والشاعرات هذا الدور البطولي للنساء المقاومات، وفي هذا الإطار تقول الشاعرة تاوكرات وهي من أقوى شاعرات المقاومة في منطقة الأطلس المتوسط المغربي ولدت عمياء ولم تتزوج قط، وقد كان رجال المقاومة يخافون أشعارها أكثر مما كانوا يخافون نيران القوات العسكرية الفرنسية. وحسب فرانسوا رينيي François Rey-nier الذي جمع نصوصها الشعرية، فقد كانت تاوكرات «عجوزا هرمة مشرفة على الموت، أحيت بأشعارها الحماسة والشجاعة في نفوس رجال المقاومة، لذلك شكلت العدو الرئيسي لقوات الاحتلال»[26]:

أتى النصارى وشربوا من العيون غير خائفين

ربطوا خيولهم وضربوا الأوتاد

وقالوا لكم سنتجاور بالخيام

وأمام الاستسلامات المتكررة لرجال المقاومة، وقفت تاوكرات تستصرخ النساء لحمل السلاح والالتحاق بجبهات القتال لتعويض المقاومين المتخاذلين والمنسحبين:

انهضي يا توذا نادي إيطو وإيزا[27]

استصرخن النساء

قضت الضرورة أن تحملن السلاح

فالرجال رغم كثرتهم كأنهم غير موجودين[28]

أما الشاعر والمقاوم احماد أوباسو الذي شارك في معركة بوكافر، فقد عمل على توثيق بطولات المرأة المقاومة بأسلوب بلاغي، يقول بصدد مشاركة المرأة الفعلية وخاصة المقاومة عدجو موح في هذه المعركة إلى جانب الرجل، وحملها للسلاح لمواجهة قوات الاحتلال:

شاركت في معارك بوكافر

نساء كن غاية في الجمال

حملن الأسلحة والبنادق

وكن يتحركن كاللؤلؤ والمرجان

أطلب من الله أن يبدل مشيتكن

لكي تصير كلها أسلحة وخناجر

فقد قمت بجمع ألفين من الأكباش والخيول

وقدمتها لك هدية أيتها المقاومة عدجو موح[29]

كما تتحدث إحدى النساء الشاعرات المقاومات عن بسالة المرأة المقاومة وشجاعتها وإصرارها على الصمود في هذه المواجهة العسكرية رغم أساليب الإبادة الوحشية التي عمدت إلى تبنيها القوات الاستعمارية والمتمثلة في الحصار المطبق المؤدي إلى الجوع والعطش. كما تتحدى من خلال أشعارها الضباط العسكريين الفرنسيين من أمثال شارضون Chardon وبولان Poulain ، وتصف حالتها في ردها

على النساء اللواتي يعتبرنها سوداوية اللون قائلة بأنها قاومت المستعمر وتحملت كل المشاق ففي الكهوف وبين الأشجار الشائكة تنام متحدية الطبيعة القاسية، حيث تقول:

أيها المستعمر شارضون[30]

المرأة البوكافرية تتحداك

وتقول لك عفر وجهك بالطين

وعفر به خيولك وقوة كوم بولان[31]

ولتعلم النساء اللواتي تنعتني

بسواد وجهي أنني لست كذلك

يكفيني فخرا واعتزازا مقاومتي للنصارى

في أعالي الجبال وبين الصخور

أنام وسط الأحراش والأحجار والأمطار

حتى تآكلت ملابسي وتمزق منديل رأسي

في أعالي الجبال وداخل الكهوف والمغارات

كل هذا من أجل صد النصارى عن ديارنا

وتعتبر الشاعرة المقاومة عدجو موح نموذجا بارزا لهاته النساء المقاومات اللواتي تميزن بشجاعتهن وبسالتهن وأبدين روحا قتالية عالية. فقد ازدادت هذه المقاومة في أواخر القرن التاسع عشر وحملت البندقية في معارك بوكافر إلى جانب رجال المقاومة وتمكنت من إسقاط العديد من جنود الاحتلال[32]، وعندما تمكنت القوات العسكرية الفرنسية من اغتيالها حلت حسرة وخسارة كبرى بهذه الجماعات المقاومة. وقد جسدت الأشعار الشفوية المحلية ذلك الحزن الذي أصاب المقاومين باستشهاد عدجو موح[33]. وفي هذا السياق يشير الشاعر سيدي بادو أومسعود إلى الدور البطولي الذي قامت به المقاومة عدجو موح واستماتتها إلى أن استشهدت في 28 فبراير 1933 وهي في الأربعين من عمرها، وكيف أن أفراح ومسرات أفراد قبيلتها قد توقفت بسبب استشهادها:

سأروي قصتك يا معركة بوكافر

سأحكي أحداثك وأحزانك كي لا تنسى

أقسم أن أفراحنا ومسراتنا قد اختلفت

كما أقبرت ضحكتنا منذ استشهاد عدجوموح

يا من حملت السلاح وواجهت وقاتلت السينغاليين

بكل شجاعة واستماتة يستحيل وصفها

فأنت الوحيدة التي خففت من أحزاننا ومآسينا

بحملك للسلاح وسط الفتيان في بوكافر

أنعيك اليوم وأنع معك أصحاب السروج النحاسية[34]

أما الشاعر احماد أوباسو فيعبر في أسلوب بلاغي وخيال شعري متميز عن أحاسيسه المفعمة بالحسرة والحزن بعد استشهاد المقاومة عدجو موح، حيث يوجه كلامه إلى كل المقاومين الذين شاركوا في معركة بوكافر لاستفسارهم عن هذه المقاومة، ويؤكد لهم أن الاستشهاد ليس عارا وإنما العار هو الاستسلام للمستعمر:

يا أبناء بوكافر أين عدجو موح ؟

لقد فضلت الاستشهاد على تقديم الخضوع للمستعمر

كيف ما كانت الأحوال، فأنت المنتصرة أيتها المقاومة عدجو موح

أيتها الرياح خبرني بربك عن أحوال عدجو موح

أجابتني وقالت: لقد استشهدت عدجو موح

لم يبق أمامي سوى أن أطلب من أوبير وبولان

أن يمنحاني تأشيرة المرور قصد الصعود إلى بوكافر لدفن عدجو موح

لقد أصابت الخيبة والخزي والعار الذين قبلوا المفاوضات والاستسلام

كما أصابت الذين نسوا مقاومتك واستشهادك ياعدجو موح

واحدة هي التي كانت تملأ سكون ديارنا قد دفناها

ولم تعد الرغبة في التزين بالحناء عند نسائنا بعد استشهادها[35]

وفي أحيانا كثيرة كانت النساء المقاومات أكثر شجاعة وجرأة من الرجل، إذ لم يقبلن بسياسة التفاوض والاستسلام، وحتى وإن كانت شروط الصلح في صالح القبائل المقاومة، وهو الأمر الذي ينطبق على الشاعرة المقاومة هرة واسو التي لم تستسغ قرار رجال المقاومة الدخول في مفاوضات للاستسلام لإنقاذ ما تبقى الأطفال والنساء خلال معارك بوكافر، فعبرت في أشعارها عن رفضها المطلق للاتفاق المبرم بين زعيم المقاومة عسو أوبسلام والجنرال هوري قائد قوات الاحتلال، واعتبرته نوعا من الانهزام وطالبت جماعات المقاومة بضرورة الأخذ بالثأر والاستمرار في المقاومة وعدم الاستسلام[36] رغم أن شروط الخضوع كانت في صالح المقاومين وخاصة النساء منهم[37]، حيث تقول:

يا باسلام[38] الذي كان سيد جبل صاغرو

إلى أن باعه لأهل بولان

حينما صعدناك يا صاغرو

كان النبي في مقدمتنا

وحينما نزلنا جبل صاغرو

تركنا النبي بالجبل، أبى أن يرافقنا ويزكي انهزامنا

لقد خجلت من نفسي أيها النبي لما استسلمنا

4 الشعر الشفوي النسائي والمقاومة:

استطاعت المرأة المغربية أن تجعل من الأشعار الشفوية التي نظمتها وثيقة حية تصور لنا مجريات هذه الحرب الاستعمارية. ومن خلال استقرائنا لهذا الإبداع الشعري الشفوي النسائي يتضح بشكل جلي أن المرأة الشاعرة قد واكبت بقريحتها الأحداث التي عاشتها القبائل المغربية طيلة هذه الفترة من تاريخ المغرب، واستطاعت أن توصل إلينا كل التفاصيل التي ضحيت من أجلها جماعات المقاومة، وشاركت في توثيقها وتأريخها من خلال قصائد شعرية شفوية مؤثرة وصفية وحماسية. وفي هذا الإطار برزت شاعرات اشتهرن بشعرهن المقاوم سعين من خلاله إلى تأجيج مشاعر المقاومين واستنهاض هممهم وحثهم وتشجيعهم على الصمود، وتذكيرهم بأهداف ونوايا القوات الاستعمارية المتمثلة في استنزاف خيرات البلاد واستغلالها:

أراد المستعمر أن نؤدي الضرائب

ونمنحه البيض والسمن والدجاج

قسما بالله لن نمنحه إلا رصاص بنادقنا

واستمرت الشاعرات المقاومات في تشجيع المقاومين وحثهم على القتال والاستماتة

والتصدي لقوات الاحتلال فقالت إحداهن:

اضربوا أيها الشباب

تقدموا إلى الأمام

لأن من مات في الجهاد سيتبوأ

مقعده في الجنة ويترك العز للأهل

ومن أبرز المواضيع التي عالجتها المرأة الشاعرة في قصائدها الشعرية هي التعبير عن الألم والحزن جراء استشهاد قريب لها، وفي هذا الإطار تقول الشاعرة هرة حسين نايت بنهكو في رثاء زوجها الذي استشهد في معركة بوكافر الشهيرة إلى جانب عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال:

آه ...يا قمة بوكافر أكثرت من اليتامى

في مغارتك استشهد رفيق حياتي

آه...لن أنسى فاجعة استشهاده

حين بلغني الخبر من طرف المقاومين

أقسم ! لن يحل عطاوي مكانه في قلبي

صغيرا كان أم كبيرا، وسيما كان أم قبيحا[39]

كما استفزت مشاعرها المرهفة الخسائر الجسيمة البشرية والمادية التي لحقت بجماعتها القبلية المقاومة، فكانت تتفاعل بعواطفها البريئة تارة يائسة وتارة متفائلة، فجاء ذلك واضحا في أشعارها التي كانت مشبعة بأحاسيس الحسرة والحزن تصف فيها حالتها النفسية المتردية جراء ما عانته في هذه المعركة:

جعلتني المصائب أغني

قلبي منفوخ مثل الرحى

جراحه أبت أن تندمل

جراح بوكافر أدمت قلبي

كل من يتذكر بوكافر إلا وتدمع عيناه

أحداث بوكافر جرحت قلبي

كلما تذكرتها إلا وذرفت عيناي

أنهارا من الدموع

جبال صاغرو تذرف دموعا من الدماء

مات الشباب

هم الآن تحت التراب

واستشهدت فتيات جميلات

لا يستحقن أبدا أن يدفن في التراب

وعبرت الشاعرة المقاومة في أساليب بلاغية عن إعجابها ببسالة المقاومين، حيث قالت:

افتخر يا جبل صاغرو الهمام

فقد رفع المجاهدون صيتك في بوكافر إلى الأعالي

كما عمدت إلى ذم المتخاذلين والمنسحبين من رجال المقاومة، إضافة إلى هجاء العملاء ووصفهم بالجبن والخوف لأنهم قدموا أرضهم للمحتل دون مقاومة وصاروا أداة في يده ضد إخوانهم:

إني رأيت أولئك الذين يستبدلون البرانس
وضعوا أحزمة الحرب وحملوا الحبال العادية
وإني رأيت البندقية قد عادت إلى المزود مثل المجوهرات
رأيت هؤلاء المتخاذلين يلبسون مثل النساء
يا أيها النبي لقد تسامحت مع الذين لا ملة لهم

فالشاعرة في هذه الأبيات تعبر عن استيائها من أولئك الذين تسرب الضعف إلى نفوسهم

وأعلنوا استسلامهم وقبلوا توقيع اتفاقية الهدنة مع الجنرال هوري. فرجال المقاومة بالأمس كانوا يلبسون البرانس في الجبال إشارة إلى صمودهم لكنهم أصبحوا بعد نزولهم من بوكافر شيوخا للاستعمار ولم يعودوا في حاجة إلى البنادق التي أصبحت تخزن مثل المجوهرات في إشارة منها إلى استسلامهم.

وفي نفس الموضوع تدعو شاعرة أخرى باللعنة على المقاومين الجبناء الذين لم يستطيعوا الصمود وفضلوا التراجع والانسحاب من أرض المعركة:

صاحبتك اللعنة أيها الهارب

هل أشتري لك الشجاعة

مسكين، استولى عليه الفزع فنجا بنفسه

تاركا سلاحه[40]

وأمام ضراوة تقريع النساء وتحميلهن رجال المقاومة مسؤولية الهزيمة حرص الشاعر على تبرئة رجال المقاومة والدفاع عن رجولتهم:

أيتها الفتيات لا تقلن بأننا عاجزون ومتخاذلون

إنه المستعمر يضربني بمدافع لا أعرفها

أيها المستعمر ضع طائرتك واحمل عدتك لكي نتساوى[41]

وتتحدث الشاعرة زينة حماد بمرارة عن الواقع الذي أفرزه دخول قوات الاحتلال وخضوع قبيلتها فتقول:

لن أنسى أبدا يوم دخل النصارى بلادنا

سأكتب هذا اليوم بدم قلبي

وأسجله في أعماق قلبي

هموم ومآسي ما أشقاني بها

آه...دخل النصارى البلاد

نزع النصارى عن الرجال العمائم

وألبسوهم مناديل النساء

يأأيها الرجال ما أتعسنا

تزوجتمونا فتزوجكم النصارى

فكيف سنقضي معكم هذه الحياة[42]

وقد كان وقع الهزائم التي تعرض لها رجال المقاومة قويا على هذه المرأة الشاعرة المقاومة التي انكسرت معنوياتها وأدركت عجز جماعات المقاومة وعدم قدرتها على المواجهة، فعبرت عن ذلك الإحساس بمرارة، حيث تقول في قصيدة أخرى:

افرح أيها الحاكم فقد أصبح رجالنا سقاة لك

افرح أيها الحاكم فقد أصبح رجالنا خادمات لك

لقد ذهبت عنا الكرامات مع الأولين

بقينا نحن متأخرين لا قيمة لنا

مجرد ألعوبة بين يدي كل من دبليس وبولان[43]

ومن أبرز المواضيع التي استأثرت باهتمام المرأة الشاعرة المقاومة الفوارق الكبيرة في الإمكانيات العسكرية بين قوات الاحتلال وجماعات المقاومة، فجاءت أشعارها وصفا للأسلحة والخطط وأسماء الفرق العسكرية

والضباط العسكريين الفرنسيين الذين يقودون المعارك العسكرية، حيث تقول إحدى الشاعرات:

يا بوشفر[44] جعبتك طويلة

لكنها مليئة بالدخان فقط

تتأخر في الطلقة إلى أن يمر الرومي

فتصيب وراءه

وتقول شاعرة أخرى في نفس الإطار:

لقد عايشت أحداث بوكافر التي شارك فيها بولان

أردت مقاومة المستعمر كي لا يصل ديارنا

وأخذت بوشفر، وأخذ يقصفنا بالقنابل

وعندما بدأ في استعمال الرشاشات والأسلحة الثقيلة

لم نجد بدا من التراجع إلى معاقلنا بالجبل

آه...لقد اختلطت لنا المياه بالدماء في منابع العيون

وجرى الدمع من عيوني كأنه زخات مطر

وعندما ذهبت إلى"بادو" لمواصلة مقاومتي العدو

صعدت طائرات المستعمر الغاشم إلى السماء

وبدأ وابل من الرصاص يتساقط من السماء

آه...لقد تفطنا أن القصف بالطائرات

لكن المواجهة بين "ساسبو" والطائرة غير متكافئة[45]

وقد شكل استعمال سلاح الطيران من طرف القوات العسكرية الفرنسية صدمة كبيرة لحركات المقاومة المغربية، بسبب عدم قدرتهم على مواجهة طائرات العدو، وعدم تمكنهم من التصدي لهذا الأسلحة القاتلة مما أدخل الرعب واليأس إلى قلوب المقاومين الذين كانوا يعيشون في قلق نفسي، وقد عبرت المرأة الشاعرة عن هذا الإحساس بالعجز الذي ألم بالمقاومين:

طار اللقلاق من الأرض حاملا في منقاره النار

أيتها التيريكراف[46] إلى أين تحمل الأثقال

تحملين القنابل الحارقة ويقال أنك تنقلين المدافع

كلما رأيناك يصيبنا الرعب

يا عائشة ! التريكراف جعل حياتنا لا تطاق

ضربن قرب مساكننا وضرب أغنامنا

وكلما أخرجت ماشيتي وسرت بصحبتها

فاجأني التريكراف يطلق رشاش الردى[47]

5 قراءة في أشعار المقاومة:

تتناول هذه النصوص الشعرية الشعبية مواضيع مختلفة ذات علاقة وطيدة وواضحة بمجريات الصراع الذي خاضته قبائل آيت عطا ضد الغزو العسكري الفرنسي في منطقة صاغرو، وتصب كلها في التعبير عن تطلعات هذه الأوساط القبلية المغربية وتوعيتها بالخطر الذي يشكله المستعمر وأعوانه، وإعدادها للتصدي لهذا الخطر المزدوج. فمن ثناياها تتعالى أصوات الفخر بالانتصار على المستعمر والتحريض وتحريك الهمم. إنها أناشيد نابعة عن إحساس بالحرية واعتزاز بالنفس والرفض للعبودية والذل. لقد انطلقت هذه الإبداعات الشعرية من مواقع المواجهة، وأبرزت هموم رجال ونساء المقاومة وقدرتهم على الصمود والانتصار، فهؤلاء الشعراء

انخرطوا في حركة المقاومة وشاركوا إلى جانب المقاومين في معارك بوكافر مما مكنهم من أن يكونوا حقا شعراء مقاومة.

ورغم التداخل الحميمي القوي والتواشج المعنوي الواضح بين المواضيع التي تتطرق لها هذه الأشعار الشفوية، فإننا سنعمد إلى تجزيئها فقط تيسيرا لسبل الاستقراء، حيث يمكننا التمييز على سبيل المثال لا الحصر بين الدعوة إلى المشاركة في التصدي لقوات الاحتلال، ومدح المقاومين والمقاومات وهجاء العملاء ورجال المقاومة المستسلمين، والتباين الكبير في الإمكانيات العسكرية واللوجيستيكية بين المقاومين والقوات الفرنسية، إضافة إلى الأدوار التي قامت بها النساء المقاومات في هذه المواجهة البطولية.

قبل وقوع المعركة عمل هؤلاء الشعراء والشاعرات على استنهاض الهمم للمشاركة الفعلية لرد العدوان والدعوة إلى التكتل لمجابهة العدو والتعبير عن الشجاعة التي تميز بها الأجداد، وذلك باقتحام الأخطار وتحديها رغم خطورتها من أجل حماية بوكافر مرعى ماشية آيت عطا. وقد استطاع هذا الأسلوب التحريضي التحفيزي الذي تضمنته هذه الأشعار أن يحيي في نفوس هذه الأوساط القبلية روح المقاومة ويعمل على رص صفوفهم وتوحيد جهودهم لمواجهة قساوة الحصار الذي دام أكثر من أربعين يوما.

ومن خلال هذه القصائد الشعرية أيضا نلتقط بعض الصور التي رسمها هؤلاء الشعراء المقاومون للقوات الفرنسية والمجندين المغاربة المتعاونين معها، فالجنود الفرنسيون حسب شعراء وشاعرات المقاومة يتصفون بالجبن والخوف وعدم القدرة على المواجهة المباشرة مع المقاومين لذلك تجدهم يتسترون وراء الأسلحة المتطورة الفتاكة التي تمنحهم القوة.

هناك صورة أخرى تقف منددة بها جل الأشعار الشعبية وتتأسف على ضياعها، يتعلق الأمر بمسألة القيم التي تتحدد في زوال مجموعة من الخصال كالمروءة والشجاعة. فإذا كان هؤلاء الشعراء والشاعرات قد اهتموا بتمجيد رجال ونساء المقاومة في معارك بوكافر باعتبارهم يستحقون كل التقدير لأنهم قدموا أسمى التضحيات، فإنهم في المقابل ومن خلال استنطاق المضامين المضمرة لهذه النصوص الشعرية يستنكرون كيف أصبح وجود المستعمر الفرنسي أمرا مستساغا بين المقاومين المستسلمين والمتخاذلين، وكيف أصبح مقاوموا الأمس في خدمة الفرنسيين.

وبما أن مساهمة المرأة العطاوية ومشاركتها إلى جانب الرجل في هذه المعركة قد كانت فعالة منذ بدايتها إلى نهايتها، حيث كانت تقوم بأعمال لا تقل بطولية عن أعمال الرجال، لكنها همشت من طرف التاريخ الذكوري الذي ركز في الغالب على مقاومة الرجال، فإن هذه الأشعار الشعبية قد استطاعت أن توصل إلينا جل التفاصيل النبيلة التي ضحت من أجلها هذه المرأة التي صنعت المقاومة وعلى يدها تحقق الصمود، وعكست استعداد المرأة الكامل لهذه المهمة التاريخية مادام رجال القبيلة ليسوا في مستوى الحدث التاريخي على حد تعبير هذه النصوص الشعرية. كما تناولت الأدوار البطولية التي قامت بها النساء المقاومات والتي لم تقتصر على الأدوار التقليدية مثل استنهاض الهمم وإذكاء حماس رجال المقاومة ومنعهم من التراجع وتوزيع الذخائر، بل تعدته إلى المشاركة الفعلية في معارك بوكافر.

ومن الموضوعات الأخرى التي عالجها

شعراء وشاعرات المقاومة في شعرهم التفاوت الكبير والواضح في الوسائل والإمكانات العسكرية بين رجال ونساء المقاومة الذين كانوا يستعملون أسلحة بسيطة مثل السيوف والخناجر والبنادق البسيطة ذات الطلقة الوحيدة مثل بوشفر وساسبو، وبين القوات العسكرية الفرنسية التي كانت مدججة بكل أنواع الأسلحة الحديثة كالطائرات والمدافع والرشاشات والقنابل المتفجرة. إضافة إلى لجوئها إلى أساليب الإبادة الوحشية عن طريق الحصار المطبق والمؤدي إلى الجوع والعطش والفتك بالماشية التي كانت المصدر الاساسي لعيش السكان.

من جهة أخرى اتسمت هذه الأشعار بمرارة الهزيمة واليأس والإحباط، فصورت لنا قساوة الظروف التي كان يعيشها رجال ونساء المقاومة، لذلك اعتبرت لوحات إبداعية نقلت إلينا الجروح العميقة التي أصابت المقاومين والحزن الشديد الذي ألم بهم بسبب فراق الابن والزوج والأهل، وعبرت عن الأسى والأسف لما آلت إليه أوضاع رجال ونساء المقاومة. إنها خزان نفسي واجتماعي صب فيه شعراء وشاعرات المقاومة كل مشاعرهم وتمثلاتهم.

خاتمة:

أكدت هذه النصوص الشعرية الشعبية مصداقيتها من حيث قدرتها على سد الفراغ الذي يعرفه البحث التاريخي المغربي في موضوع المقاومة النسائية، الذي يعتبر من أبرز الأبعاد التاريخية المهملة في حركة الاهتمام بقضايا المرأة في المغرب، فالكتابات الوطنية التي حاولت ملامسة الموضوع تظل محتشمة. أما الأبحاث التاريخية الأجنبية التي اهتمت بالموضوع فقد تناولته بسطحية، ومن ثم عملت هذه النصوص الشعرية على إعادة الاعتبار للنساء المقاومات سواء بالكلمة أو بالسلاح من خلال تجاوز النقص الذي اعترى الكتابات الاستعمارية، والوصول إلى عمق بعض القضايا والإشكاليات المرتبطة بمقاومة المرأة المغربية، لأنها تعتمد على روايات من عاشوا وعاصروا الأحداث، وبالتالي تساهم في إبراز الفاعلين الحقيقيين في التاريخ. ولذلك كان اعتمادنا على هذه الوثائق الشفوية مجالا تقويميا وفي نفس الوقت مكملا للبحث التاريخي خصوصا حين يتعلق الأمر بالتاريخ المحلي كما هو الشأن بالنسبة لموضوع المقاومة النسائية.

ومن خلال هذا الإبداع الشعري الشفوي الذي جاء على لسان العديد من شعراء وشاعرات المقاومة يتبين أن المرأة العطاوية المقاومة قد عاشت حدث المقاومة بكل تجلياته، بحيث شكلت أداة محورية في مواجهة قوات الاحتلال من خلال شحذ الهمم والتحفيز على المقاومة. كما تعطينا صورة حية وواضحة لمجريات النضال الذي خاضته النساء المقاومات إلى جانب الرجال في معارك بوكافر والصمود البطولي الذي أبدته طيلة هذه المواجهة العسكرية غير المتكافئة.

لقد شكلت هذه المخزونات الشعرية الشفوية قيمة مضافة كبيرة اكتسبت مشروعية الوثيقة من وجهة علم التاريخ، إنها وثائق تشكل الذاكرة الحية والوعي الجمعي في تاريخنا الماضي والراهن، تسمح لنا بإظهار الوجه الخفي للتاريخ، وتتيح الفرصة للتعرف على جزء من التاريخ كما يرى بالعين المجردة وبذاكرة أناس عاشوا تلك الأحداث مما يجعل له معنى وقيمة. كما أنها مكنتنا من رصيد تاريخي مهم مليء بالمعطيات والمعلومات عن مقاومة المرأة المغربية، متحرر من كل التمثلات والأحكام الجاهزة ومنفلت من هيمنة وسلطة الموضوعات التقليدية ومن

إسقاطات الآخر وتأويلاته.

الهوامش:

1 علال ركوك، مواكبة المقاومة الشعبية للتدخل الفرنسي في الأطلس المتوسط 1920م 1934م، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907م 1956م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، نونبر 1999م، ص187.

2 نفسه.

3 للاصفية العمراني، شاعرات المقاومة المسلحة في الجنوب المغربي، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، مارس 2000، ص174.

4 شفيق محمد، النص الغنائي بالمغرب بين بناء الدولة وتمجيد السلطة، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء، 2012، ص19.

5 الملكي المالكي، أغاني المقاومة، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ، مارس 2000، ص184.

6 نفسه، ص 183.

7 نفسه.

8 نفسه، ص184.

9 Henri Basset, Essai sur la littérature des Berbères, Alger, Imprimerie, 1920. p942.

10 Ibid, p348.

11 – أحمد المنادي، معالم نقدية في مسار تلقي الإبداع الأمازيغي وقراءته، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، عدد مزدوج 4-5 ، 2010، ، ص17.

12 – نفسه.

13 13 يرجع الفضل في توفرنا على هذه النصوص الشعرية الشفوية الأمازيغية وترجمتها إلى اللغة العربية إلى مجموعة من الأساتذة والباحثين الذين بذلوا جهودا معتبرة في جمع وتوثيق هذه المادة الغنية، وأخص بالذكر لا الحصر كل من الأستاذ علال ركوك والأستاذة للاصفية العمراني والأستاذ محمد شفيق والأستاذ الملكي المالكي. لكن ورغم هذه المحاولات الفردية المعتبرة في مجال التاريخ الشفوي إلا أن عملية جمع شاملة لهذه المادة الشعرية الشفوية ونقلها من مستوى التداول الشفوي إلى مستوى التوثيق والنشر تحتاج إلى المأسسة والتنسيق والتكامل، وبالتالي مؤسسة علمية ترعاه وتطوره، وهو ما يمكن اعتباره ضرورة علمية استعجالية.

14 – أطلق مصطلح الكوم على المغاربة الذين انخرطوا في الوحدات الإضافية المرتبطة بالجيش الفرنسي، انظر:

- Guennoun Cap, Les Rôdeurs et les Djiouchs du Moyen Atlas, Bulletin du Comité de l’Afrique Française, N0 12, Décembre 1927, p.486.

15 15- Rivet Daniel, Lyautey et l’institution du Protectorat français au Maroc (1912-1925) tome II, l’Harmattan, Paris, 1988, p.20.

16 – خلافا للخطابات الرسمية القائلة باعتماد القوات الفرنسية لأساليب حضارية في غزوها للمغرب

مثل سياسة الاتصال المباشر والابتسامة وبقعة الزيت وإظهار القوة لتفادي استعمالها، فإن الواقع يبين عكس ذلك، فقد ارتكزت في عملياتها على وسائل وأساليب عسكرية أكثر فتكا وقساوة، انظر:

.Rivet Daniel, op.cit, p.71 -

17 - أثار لجوء القوات الفرنسية إلى هذا القصف الكثيف والعشوائي والاستعمال المفرط لقوة النيران موجة من الانتقادات في الأوساط الفرنسية باعتبار هذه التصرفات لا تليق بجيش من المفروض أنه يمثل دولة متحضرة في مواجهة مقاومة شعبية ذات تسليح بسيط، انظر:

الخديمي علال، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1884- 1910 حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص48.

18 - تحدث الصحفي الفرنسي كوستاف بابان Gustave Babin الذي عاين العمليات العسكرية في المناطق المجاورة لصفرو عن لجوء القوات الفرنسية» إلى تبني سياسة الأرض المحروقة بهدف إرغام رجال المقاومة على الاستسلام، حيث كانت تعمد إلى تدمير الدواوير والقرى باستخدام احدث أنواع المتفجرات وإحراق المنازل والمحاصيل الزراعية...ففي أقل من أسبوعين أقدمت على إحراق وتدمير أكثر من 14 قصبة ودوار»، انظر:

- Babin Gustave, Au Maroc par les camps et par les villes, Editeur Bernard Granet, Paris 1912, p.219.

19 voinot Louis, Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, Charles-Lavauzelle, Paris, 1939, p450.

20 Huré H, La Pacification de Maroc, Dernière Etape(1931-1934), éditions Berger lavrault, Paris,1952, p118.

21 تطرق الجنرال هوري إلى الخسائر المادية الثقيلة التي تعرضت لها جماعات المقاومة والمتمثلة في فقدانهم لأعداد كبيرة من قطعان الماشية التي تعتبر رأسمالهم الوحيد باعتبار أغلب من لجأوا إلى صاغرو هم رحل ومربو الماشية، فمن أصل 25 ألف رأس التي كانت في بداية فبراير لم يبق إلا 2500 رأس في 24 مارس والباقي مات عطشا أو قتل بالمدفعية والطيران، انظر:

بوكبوط محمد، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار 1880-1938 صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005، ص162.

Huré H, op.cit, p118.

22 بوكبوط محمد، م.س، ص145.

23 حول مساهمات النساء المغربيات في الحركة الوطنية، يمكن الرجوع إلى:

أليكسون باكير، التاريخ والأسطورة: حكايات نساء المقاومة المغربية، ترجمة ليلى أبو زيد، مجلة ملفات من تاريخ المغرب العدد 15، السنة الثانية، الرباط، نونبر 1997.

24 محمد البكراوي، دور المرأة القروية المغربية في حركة المقاومة المسلحة وإشكالية المصادر: 1912م 1934م، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، مارس 2000، ص70.

25 أكدت الكتابات الاستعمارية نفسها هذا الدور البطولي، وكيف أن المرأة في معركة بوكافر الخالدة تركت بصمات خالدة في سجل التاريخ لقاومة الاستعمار وكيف أنها كانت " تتسلل بشجاعة خارقة إلى موارد المياه تحت نيران رشاشتنا، وتسقط أغلبهن، لكن الباقيات يواصلن مهامهن البطولية...وتحمس المقاتلين بالزغاريد المدوية، كما يقمن بتوزيع الذخيرة والمؤونة،

ويأخذن مكان القتلى لتعويضهم، وفي غياب الأسلحة يدحرجن على المهاجرين من قواتنا أحجارا ضخمة تنشر الموت حتى قعر الوادي''، انظر:

Vial Jean, Le Maroc Héroïque, Hachette, Paris 1938, p266 .

26 محمد شفيق، الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الأطلس المتوسط وشرقي الأطلس الكبير، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد 4، الرباط، 1987 ، ص88.

27 أسماء أمازيغية للنساء

28 اعلي خداوي، دور الشعر الأمازيغي بالأطلس المتوسط في الدفاع عن المقدسات الوطنية، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907م 1956م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ىنونبر 1999م، ص207.

29 للاصفية العمراني، م.س، ص177.

30 يتعلق الأمر بالعقيد Chardon أحد أبرز القادة العسكريين الفرنسيين الذين شاركوا في معارك بوكافر.

31 هو القبطان Poulain من العسكريين الفرنسيين المشاركين في الغزو الفرنسي لبوكافر، كان يقود فرقة من الكوم المغاربة.

32 محمد البكراوي، م.س، ص72.

33 نفسه.

34 علال ركوك، المقاومة المغربية من خلال التراث الشعبي، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004، ص199

35 للاصفية العمراني، م.س، ص179.

36 للاصفية العمراني، المقاومة ضد الاستعمار من خلال نصوص شعرية أمازيغية، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بجهة مراكش تانسيفت الحوز 1912 1956، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، يناير 2000، ص181.

37 يورد الجنرال هوري أن الوفد المكون من زعماء المقاومة وشيوخ العشائر والذي اتفق مع الفرنسيين على الاستسلام قد قوبل بالشتائم من قبل النساء اللواتي كن يصحن في وجوههن « يا للعار والخزي، لستم رجالا لقد صرتم عبيدا للنصارى»، وهن اللواتي كن في المعارك يثرن حماستهم ونخوتهم بقولهن «كونوا رجالا»، انظر:

محمد بوكبوط، م.س، ص162.

38 هو عسوأوبسلام زعيم حركة المقاومة.

39 39 للاصفية العمراني، م.س، ص176.

40 علال ركوك، م.س، ص96.

41 بوكبوط محمد، م.س، ص146.

42 للاصفية العمراني، م.س،180.

43 نفسه، ص181.

44 نوع من البنادق التقليدية التي كان رجال المقاومة يستعملونها في مواجهاتهم مع قوات الاحتلال.

45 للاصفية العمراني، م.س، ص189.

46 لقب أطلقه المقاومون على الطائرة.

47 الملكي المالكي، م.س، ص 186.

لائحة المصادر والمراجع:

– أحمد المنادي، معالم نقدية في مسار تلقي الإبداع الأمازيغي وقراءته، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، عدد مزدوج 5–4 ، 2010.

اعلي خداوي، دور الشعر الأمازيغي بالأطلس المتوسط في الدفاع عن المقدسات الوطنية، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907م 1956م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ىنونبر 1999م.

الخديمي علال، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1884– 1910 حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991.

الملكي المالكي، أغاني المقاومة، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ، مارس 2000.

أليكسون باكير، التاريخ والأسطورة: حكايات نساء المقاومة المغربية، ترجمة ليلى أبو زيد، مجلة ملفات من تاريخ المغرب العدد 15، السنة الثانية، الرباط، نونبر 1997.

بوكبوط محمد، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار 1880–1938 صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005.

شفيق محمد، النص الغنائي بالمغرب بين بناء الدولة وتمجيد السلطة، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء، 2012.

علال ركوك، المقاومة المغربية من خلال التراث الشعبي، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004.

علال ركوك، مواكبة المقاومة الشعبية للتدخل الفرنسي في الأطلس المتوسط 1920م 1934م، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط 1907م 1956م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، نونبر 1999م.

للاصفية العمراني، المقاومة ضد الاستعمار من خلال نصوص شعرية أمازيغية، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بجهة مراكش تانسيفت الحوز 1912 1956، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، يناير 2000.

للاصفية العمراني، شاعرات المقاومة المسلحة في الجنوب المغربي، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، مارس 2000.

محمد البكراوي، دور المرأة القروية المغربية في حركة المقاومة المسلحة وإشكالية المصادر: 1912م 1934م، ندوة دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، مارس 2000.

محمد شفيق، الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الأطلس المتوسط وشرقي الأطلس الكبير، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد 4، الرباط، 1987.

- Babin Gustave, Au Maroc par les camps et par les villes, Editeur Bernard Granet, Paris 1912.
- Guennoun Cap, Les Rôdeurs et les Djiouchs du Moyen Atlas, Bulletin du Comité de l›Afrique Française, N⁰ 12, Décembre 1927.

Henri Basset, Essai sur la littéraa ture des Berbères, Alger, Imprimerie, 1920.

Huré H, La Pacification de Maroc, Dernière Etape(1931-1934), éditions Berger lavrault, Paris,1952.

- Rivet Daniel, Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc (1912-1925) tome II, l'Harmattan, Paris, 1988.

Vial Jean, Le Maroc Héroïque, Hachette, Paris 1938 .

voinot Louis, Sur les traces glor rieuses des pacificateurs du Maroc, Charles-Lavauzelle, Paris, 1939.